مقاومة الشيخ محمد بن عبد الله (الملقب ببومعزة) (1844-1847) من خلال كتابات الضباط الفرنسيين "كتاب: Saint Arnaud, Lettres du maréchal Saint Arnaud, TOME SECOND".-انموذجا-

The resistance of Sheikh Muhammad bin Abdullah (nicknamed Boumaza) (1844-1847) in the through the writings of the French officers: "The book of: Saint Arnaud, Letters du Maréchal Saint Arnaud, TOME SECOND ", as a model.

فارس العيد*

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، العنوان الالكتروني: l.fares@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/03 تاريخ القبول: 2022/10/27 تاريخ النشر: 2022/12/28

ملخص:

ركزت سلطات الاحتلال الفرنسي جهودها بعد احتلال مدينة الجزائر على إخضاع منطقة حوض الشلف والظهرة، والونشريس باعتبار أنها منطقة ارتكاز أساسية لتوطيد أركان الاحتلال الفرنسي في الوسط الجزائري وإعطاء الدعم اللازم للحملات العسكرية في منطقة الغرب الجزائري.

نستهدف من خلال هذه الدراسة تحديد خصوصيات تدوين تاريخ مقاومة الشريف بومعزة (1844-1847) في الكتابات الفرنسية، والتي تندرج ضمن المؤلفات الهادفة الى تبرير المشروع الاستعماري الفرنسي للجزائر عموما، ومن هذه المؤلفات نرصد كتاب Lettres du maréchal de Saint-Arnaud للضابط سانت آرنو Saint-Arnaud، المعروف بحملاته العسكرية في الوسط والغرب الجزائري، وعليه فهذا المصدر التاريخي يكشف عن جوانب هامة من مقاومة الشريف بومعزة، المعروف بحملاته العسكرية في الوسط والغرب الجزائري، ويكشف عن جوانب هامة من مقاومة الشريف بومعزة.

كلمات مفتاحية: الاحتلال، حوض الشلف، المقاومة، الشريف بومعزة، الماريشال سانت آرنو.

Abstract:

After the occupation of the city of Algiers, the French occupation authorities focused their efforts on subjugating the area of the Chlef Basin, Dhahra and Wenchris, as it is an essential focal point for consolidating the pillars of the French occupation in the Algerian center and giving the necessary support to the military campaigns in the western Algerian region.

We aim through this study to determine the peculiarities of writing down the history of the resistance of Sharif Boumaza (1845-1847) in French writings, Saint-Arnaud, known for his brutal military campaigns in the Algerian center and west, and accordingly this historical source reveals important aspects of the resistance of Cherif Boumaza, represented in particular in the infernal military strategy used by the French military leadership.

Keywords: keywords; keywords; keywords; keywords; keywords.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

ركزت سلطات الاحتلال الفرنسي جهودها بعد احتلال مدينة الجزائر على إخضاع منطقة حوض الشلف والظهرة والونشريس باعتبار أنها نقطة ارتكاز أساسية لتوطيد أركان الاحتلال الفرنسي في الوسط الجزائري وكذا إعطاء الدعم اللازم للحملات العسكرية في منطقة الغرب.

نستهدف من خلال هذه الدراسة تحديد خصوصيات تدوين تاريخ مقاومة الشريف بومعزة (1845-1847) في الكتابات الفرنسية، والتي تندرج ضمن المؤلفات الهادفة إلى تبرير المشروع الاستعماري الفرنسي للجزائر عموما، ومن هذه المؤلفات نرصد كتاب Lettres du maréchal de Saint-Arnaud، للضابط سانت آرنو Saint-Arnaud، المعروف بحملاته العسكرية في الوسط والغرب والشرق الجزائري، وعليه فهذا المصدر التاريخي يكشف عن جوانب هامة من مقاومة الشريف بومعزة، ممثلة بشكل خاص في الإستراتيجية العسكرية الجهنمية المتبعة من قبل القيادة العسكرية الفرنسية لإخمادها.

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج السردي المناسب لترجمة المعلومات الواردة في المصدر محل الدراسة، وكذا المنهج التحليلي الذي سنحاول بواسطته إعطاء الأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية لسياسية الاستعمار الفرنسي بالمنطقة من خلال هذا المؤلف.

يرصد هذا المصدر الهام في تاريخ الجزائر الحديث التحديات التي واجهت المقاومة الشعبية بحوض الشلف مع بداية الاحتلال الفرنسي، كما يكشف عن طبيعة جرائم المستعمر الفرنسي بالمنطقة، وكذا المميزات الذهنية والسيكولوجية التي تميز بها الضباط الجيش الفرنسي في الجزائر.

2. تعريف الماريشال سانت آرنو 1798-1854م: (Saint-Arnaud, Armand Jacques Achille Leroy)

ولد الماريشال سانت آرنو بباريس في 20 اوت 1798م، لأسرة مرموقة فأبوه كان حاكما عاما على عهد القنصلية خلال الثورة الفرنسية، زاول سانت آرنو دراسته بثانوية نابليون، وفي فترة شبابه مات ابوه، فتزوجت امه مجددا من السيد فورساد دو روكات -Forcade la- Roquette، الذي كان قاضيا لأكثر من 30 سنة. وبعد مرحلة الدراسة الثانوية انضم سانت آرنو في سن السابعة عشر الى القوات البرية في الجيش الفرنسي، ليشتغل بمدينة ليون ثم نقل الى اليونان في سنة 1822م (Saint-Arnaud,1858 :02)، ويشير نارسيس فوكون Narcisse faucon في كتابه Livre D'or de L'Algérie بان سانت آرنو قد مر بعد ذلك بمرحلة فوضوية جعلته يفصل من الجيش عدة مرات وذلك بسبب حالة الانحلال الخلقي التي كان يعيشها خصوصا ما تعلق بالقمار حيث أضحى مدينا للعديد من الأطراف، ولم يتمكن من الانخراط مجددا في الجيش إلا بعد وساطة أخيه ليروي leroy Adolph، حيث أصبح في سنة 1831 ضابطا في فرقة المشاة بفيلق بريست Brest، ثم تزوج من ابنة نقيب سفينة من نوع الفرقاطة، السيد"باسكين"، وأصبح له طفلان ترعرعا في كنف أخيه"أودولف" بعد وفاة زوجته في سنة 1836 (Narcisse, 1889 : 591).

وبعد تعيين الجنرال بيجو Bugeaud (ينظر التعليق 01) حاكما عاما على الجزائر، دعم سانت آرنو ليلتحق بفرقة اللفيف الأجنبي التي أرسلت إلى الجزائر ، وهناك فتحت أمام"

سانت آرنو" آفاق جديدة للعمل العسكري(ماسبيرو، 2006: 50)، وفي سنة 1833م أصبح مساعدا للجنرال بيجو (Changarnier, 1930 :218)، وصل" سانت ارنو" إلى الجزائر كضابط في سنة 1836م ضمن فرقة اللفيف الأجنبي برتبة نقيب، وفي عام 1837م شارك في الهجوم الفرنسي على قسنطينة، ليصبح بعدها قائدا لفيلق الزواف في عام 1840م، وفي 1842م رقي الى رتبة عقيد، وشارك في حملات الجيش الفرنسي بجبال موزاية ومعسكر وغيرها من المناطق(Saint-Arnaud,1858 :02). ثم أصبح سانت آرنو قائد فرقة في سنة 1847م، وشارك في مهاجمة جبال الظهرة " 1845 م- 1847 م"، وحارب "بومعزة" واعتقله، ومكافأة له على هذا الانجاز تم ترقيته إلى رتبة "جنرال" 1847م، وكان أنذاك قائدا لمستغانم. ليتم تعيينه بعد ذلك قائدا للحملة ضد القبائل وبجاية (Saint-Arnaud,1858 :04).

توجت مسيرة سانت أرنو الحافلة في الجزائر بتعيينه عام 1851م وزيرا للحرب في عهد "لويس فيليب" نظرا للدور الذي قام به خلال الانقلاب، ووصل إلى رتبة "ماريشال" بعد ذلك خلال مشاركته في حرب القرم ومات بعد مرض طويل عام 1854م .(Narcisse 1889 : 591).

يظهر من خلال ترجمة حياة سانت آرنو حلة الاضطراب النفسي، وهو ما سيجعله من الضباط الأساسيين الذين سيتم الاعتماد عليهم في توطيد أركان الاستعمار الفرنسي في الجزائر، خصوصا خلال فترة تولي الجنرال بيجو منصب الحاكم العام للجزائر، فهذه النوعية من الضباط هي التي كانت القوة الضاربة في الجيش الفرنسي، والتي مكنت السلطات الفرنسية من اخضاع الجزائريين بطرق اجرامية لا تتماشى مع القيم التي كانت السلطة الفرنسية تتبجح بها بعد الثورة الفرنسية.

3. تقديم كتاب:"مراسلات الماريشال سانت آرنو Lettres du maréchal Saint Arnaud,":

نشر كتاب مراسلات سانت أرنو في سنة 1855 بباريس في جزئين، حيث تضمن رسائل بعث بها هذا الأخير إلى أفراد عائلته وأقربائه، وقد تم ضبط وتصنيف هذه الرسائل من قبل سانت باف M. Saint-Beuve المنتمي إلى الآكاديمية الفرنسية، والذي وضع مقدمة للكتاب فيها معلومات دقيقة حول حياة سانت آرنو، وقد احتوى الجزء الأول منه على حوالي 629 صفحة، مقسمة على مقدمة و 9 محاور، وقد ترجم الجزء الأول من الكتاب

من قبل عبد القادر ليفا ونشرت هذه الترجمة في سنة 2013 م تحت عنوان "مذكرات الماريشال سانت آرنو" وقسمه إلى جزئين، حيث جاء الجزء الأول تحت عنوان " مذكرات الماريشال سانت آرنو 1832-1841"، أما الجزء الثاني " مذكرات الماريشال سانت آرنو 1841-1844".

جاء الجزء الثاني من الكتاب في حوالي 624 صفحة، وقد تضمن مراسلات الماريشال سانت آرنو مع أخيه ليروي M. Leroy de Saint- Arnaud سانت آرنو، المحامي بباريس. تناول صاحب المؤلف في هذا الجزء أربعة محاور أساسية خصصها لما سماه بالحرب الإفريقية مقسما إياها كرونولوجيا الى أربعة أقسام حيث تضمنت مراسلات القسم الاول معلومات حول الحرب الإفريقية من سنة 1844 الى سنة 1847، أما القسم الثاني فخصصها للفترة الممتدة من 1848 الى سنة 1849، في حين تضمن القسم الثالث مراسلات الفترة الممتدة بين 1850 و1851، أما القسم الرابع فخصصه للفترة الزمنية الممتدة من سنة 1851 الى سنة 1854، وقد تضمن هذا الجزء بعد ذلك عناصر متنوعة كانت كالتالي:

- ملاحظات حول الجزء الثاني.
- تقرير الجنرال راندون الى وزير الحربية حول حملة منطقة القبائل.
- ملخص حول قرارات الماريشال سانت آرنو السياسية والإدارية بعد توليه وزارة الحربية.
- خطاب الماريشال سانت آرنو في حفل افتتاح تمثال الماريشال نويي.
- خطاب الماريشال سانت آرنو في حفل افتتاح المجلس العام لمقاطعة جيروند.
- وثائق خاصة بحرب الشرق ووفاة الماريشال.

أما ما يهمنا في هذه الدراسة فهو القسم الأول من هذا الكتاب حيث تضمن مراسلات تدور حول ما سماه الناشر بالحرب الافريقية من سنة 1844 الى سنة 1847، وقد تضمنت مراسلات هذا الجزء معلومات حول تولي سانت آرنو لقيادة القطاع العسكري باورليون فيل، وانتفاضة الظهرة، وكذا الثائر بومعزة، وانتفاضة العامة لقبائل الغرب

الجزائري، ثم يتحدث فيها عن معارك حوض الشلف والظهرة والونشريس، وفي آخر هذا القسم يتحدث عن القبض على بومعزة، ثم توليه منصب الحاكم العام في الجزائر.

يندرج هذا المؤلف ضمن الكتابات التاريخية الفرنسية لتاريخ الجزائر المدونة من قبل ضباط عسكريين (1830-1880)، كما يشير إلى ذلك المؤرخ ابو القاسم سعد الله، فقد ظهر خلال السنوات الأولى من الاحتلال كتاب عسكريون تولوا كتابة تاريخ محكوميهم (سعد الله،2007: 19)، وذلك قصد التعرف على واقع الجزائر من خلال المشاهدة والملاحظة أثناء الحملات العسكرية (سعيدوني، 2008: 16) من أجل وضع الإستراتيجية المناسبة لإخضاع الجزائريين وإرساء قواعد مشروع الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

4. أوضاع منطقة حوض الشلف والظهرة، والونشريس قبل اندلاع مقاومة بومعزة:

انضمت اغلب قبائل منطقة حوض الشلف والظهرة، والونشريس، إلى مقاومة الأمير عبد القادر مباشرة بعد مبايعته، فقد بادر أعيان منطقة حوض الشلف إلى مبايعته في فبراير 1833م واعترفت اغلب قبائل حوض الشلف كبني مناصر و بني مناد بسلطته، وقد دعا أعيان المنطقة الأمير عبد القادر لزيارتهم لنشر الأمن والسلم بالمنطقة فاستغل الأمير الفرصة لضم مناطق جد إستراتيجية لمواجهة المحتل الفرنسي (صادق، 1964: 40).

قام الأمير عبد القادر في سنة 1835م على رأس قوات قليلة العدد بالتوجه نحو الشرق، وفي طريقه أخذ يعمل على نشر الأمن في المنطقة بالقضاء على الخارجين عن السلطة التي اختارها اغلب الجزائريين، فهزم في طريقه هذه الحاج السعيد بوادي مينا، ثم هزم شيخي المخزن سابقا ابا عبد الله و العربي وقبيلة صبيح بالشلف بعدما عاثوا فسادا في المنطقة وكان ذلك في 15 أفريل 1835م (Daumas, 1921 : 156).

خلال مسيرة الأمير هذه استقبلته قبائل عدة بالترحاب الكبير، وانضم العديد من أفرادها إلى صفوف قوات المقاومة الوطنية ومن هؤلاء نذكر أولاد قصير وأولاد السايح، ومن أعيان المنطقة الذين كانوا على رأس المستقبلين للأمير عبد القادر نذكر منهم البغدادي شيخ العطاف وكذا الحاج محي الدين إضافة إلى أعيان قبائل حجوط وموزاية وسماتة وغيرهم (صادق، 1964: 41)، وفي 15 ماي وصل الأمير عبد القادر إلى منطقة بوخرشوفة حيث استقبله أهل مليانة بحفاوة كبيرة، ومن هناك اتجه لمواجهة أبو موسى المدعو ابو حمارة الذي خرج على نفر من أتباعه لمقاتلة الأمير فهزم من أول مواجهة معه

في منطقة حوش عمورة بالجندل ،ثم مضى الأمير إلى المدية حيث عين في 25ماي محمد بن عيسى البركاني كخليفة عليها، وفي 9 جوان عاد الأمير الى ضواحي مليانة وفي منطقة بوحلوان عين محمد بن محي الدين الصغير(صادق، 1964: 42) خليفة على مليانة التي ضمت معظم منطقة حوض الشلف (صادق، 1964: 43).

5. مجريات مقاومة بومعزة من خلال رسائل الماريشال سانت آرنو:

شهدت سنة 1843م سقوط العاصمة الزمالة في 16 ماي 1843م فكان هذا الحدث ذو اثر كبير وخسارة كبيرة للمقاومة الوطنية، حيث قام الدوق دومال بمفاجئة الزمالة التي كان أغلب سكانها من النساء والأطفال، وتذكر التقارير أن عدد قتلى هذه الواقعة بلغ 300 شهيدا أخذوا غدرا، كما تم اسر حوالي 3000جزائري آخرين ، وتم خلال هذه السنة إنشاء مدينة الأصنام (الشلف) لتدعيم الحضور الاستعماري وتيسير خط المواصلات بين الجزائر ومستغانم ووهران ، كما احتلوا مدينة تنس آخر مرسى في يد الأمير (سعد الله، 1992: 267).

وواصلت قوات الاحتلال الفرنسي سياسة الأرض المحروقة والاضطهاد الجماعي والإرهاب مما أدى ذلك إلى ثورات شعبية أخرى ،خصوصا بمنطقة حوض الشلف حيث أصبح الناس يتوقون لشخصية تقودهم للنصر على الاحتلال، وخلال هذه الظروف ظهر الثائر محمد بن عبد الله المدعو بومعزة الذي تزعم المقاومة المسلحة بمنطقة جبال الونشريس وزكار والظهرة وحوض الشلف لمدة أربع سنوات (بوعزيز، 1999: 157).

وينتمي وداح بن محمد بن عبد الله الى قبيلة أولاد خويدم في حوض الشلف، وتعود أصول أجداده إلى تارودانت بالمغرب الأقصى، وشب في وسط ديني لارتباط أهله بالطريقة الدرقاوية الطيبية (بوعزيز، 1999: 157)، ويذكر البعض أنه تجند في صفوف الجيش النظامي الذي أنشأه الأمير عبد القادر، إلا أنه بعد تفريق كتيبته انسحب إلى الونشريس ليقضي حياته في التأمل والصلاة ،وكان خلال ذلك يقتسم حياته مع معزة ومن هنا اسمه ، وقد أثار بزهده وتعبده أنظار الناس فاعتبروه شريفا وصالحا وسموه المهدي المنتظر الذي سينتصر للإسلام ويهزم الكفار (قداش، 2008: 107).

وفي هذا السياق ورد في المراسلة التي وجهها سانت آرنو الى أخية ليروي سانت آرنو، والمؤرخة في 04 جوان 1845م، "...ان العرب يكرهوننا بشدة ويسهل حملهم علينا، فقد ظهر أحدهم يدعى الشريف محمد بن عبد الله المعروف ببومعزة...وهو شاب في العشرينيات من عمره ، وقد تمكن من تجييش السكان ضدنا، ولكنني هزمته في 14 افريل بسهل غري، حيث كان معه حوالي 100 فارس و50 من المشاة، وفي 21 ماي واجهته مرة اخرى بسيدي عابد وكان هذه المرة على رأس 50 فارس وحوالي 1200 من عناصر قبائل المنطقة، وفي 3 جوان ألحقت به الهزيمة مرة اخرى وقد كان على رأس 60 فارس وحوالي 200 مقاتل من حوالي 20 قبيلة تستقر بالظهرة، انه كلما انهزم إلا وازداد قوة، فمحاربة (الرومي) تعمي القبائل وتجعلهم ينضمون إليه بسهولة..." (Saint Arnaud.1855 : 28).

ويظهر من خلال هذا الاقتباس حالة النكران التي كان يعيشها الضباط الفرنسيين بالجزائر، فالماريشال ينكر تماما إمكانية أن تكون ثورة سكان المنطقة مردها إلى الظلم الممارس عليهم من قبل السلطات الاستعمارية بل يصر على أن هؤلاء السكان يعادونهم فقط لأنهم يختلفون عنهم في الدين. ويظهر أيضا أن القوات الفرنسية قد اتبعت أسلوب المطاردة العسكرية للقضاء على مقاومة في مهدها. وهو ما يتبن من خلال تلك المواجهات العسكرية المذكورة في الاقتباس حيث جرت حوالي 3 مواجهات بين الطرفين في شهرين فقط.

كانت الظروف في نهاية عام 1844م تنبئ باندلاع ثورة عارمة أمام تمادي السلطات الفرنسية في استخدام الاضطهاد والعنف والإرهاب ضد الجزائريين (سعد الله، 1992: 326)، فاستغل بومعزة الوضع واخذ يدعوا القبائل إلى تزويده بالرجال وان يتحضروا للجهاد بالسلاح والصوم والصلاة، وكانت شهرته تزداد كلما قام بزيارة القبائل، فحتى تلك القبائل التي كانت خاضعة للفرنسيين كان أعيانها يكتبون إليه ويزودونه بالأخبار سرا (قداش، 2008: 109)، وبسبب نشاطه الدعائي الواسع خلال عام 1844م ،جند الماريشال بيجو قوات كبيرة لمواجهته هو وأتباع الأمير عبد القادر، (بوعزيز، 1999: 158). وتؤكد مراسلة سانت آرنو المؤرخة في 6 اوت 1845 ذلك حين يبدي تخوفه من التحاق بومعزة بالأمير عبد القادر (انظر التعليق2) بعد أن رصد مراسلات بينهما (Saint Arnaud.1855 :37)، وبالفعل تأكدت مخاوفه بعد تعرض معسكر الجنرال بورجولي

Bourjolly بالكراميس لهجومات من قبل بومعزة وقائد فرسان الأمير عبد القادر بن قرمة (Saint Arnaud.1855 : 44).وهو امر يظهر مدى أهمية عمليات الرصد التي كان يقوم بها الجيش الفرنسي لإضعاف المقاومة، ومن خلال ذلك نستشف أن الجنرال سانت آرنو اتبع سياسة الحشد العسكري المركز للإجهاز على المقاومة وهو ما يظهر في تلبيته لطلب جاءه من الجنرال بورجولي Bourjolly بعد تعرض معسكره للهجوم السالف الذكر.

ويؤكد سانت ارنو على أسلوب حرب الإبادة المتبع ضد مقاومة بومعزة في رسالته المؤرخة في 27 جوان 1845م، حيث يقول: "...إن العرب لا يريدون الحرب، ولكنهم لا يريدون تسليم أسلحتهم إلا بعد الإبادة النهائية..." (Saint Arnaud.1855 :29)، مبررا بذلك محرقة الفراشيش (ينظر التعليق 3) التي ارتكبها الجنرال بليسي Pélissier (ينظر التعليق4) بمنطقة الظهرة.

وتأكيدا لذلك يشير سانت آرنو في مراسلته المؤرخة في 10 جويلية 1845 إلى جوانب اخرى من السياسة الفرنسية المتبعة لإخضاع قبائل حوض الشلف، حيث يؤكد على ضرورة تعيين قياد على القبائل لضمان (العشور) الضرائب ومواجهة المقاومة، وفي هذا السياق يبين "...بان الآغا الحاج أحمد طارد بومعزة بعد أن سمع بانه لدى قبائل بني سليمان إلى غاية قبائل بني تيغرين حيث تمكن من هزيمته، ولم ينجو بومعزة إلا بأعجوبة حيث نجا مع اثنين فقط من فرسانه وتوجه نحو الجنوب حيث سينضم إلى الأمير عبد القادر..." (Saint Arnaud.1855 :29).

ومما لاريب فيه أن سانت آرنو كان من انصار حرب الإبادة ويظهر ذلك بوضوح في مراسلته المؤرخة في 26 جويلية 1845م حيث يؤكد لأخيه بأنه سيقوم بنفس ما قام به بيليسي لو كان في نفس الموقف، وهو اجراء يمكن أن يتبعه في حملاته ضد مقاومة بومعزة بعد أيام فقط، وذلك بعد أن ابلغ بالانتقادات الواردة في الجرائد الفرنسية حول محرقة أولاد رياح.

ومع بداية سنة 1845م بدأت القبائل تزود محمد بن عبد الله بالأسلحة و الذخائر والبغال والاحمرة، وتبعا لذلك اخذ ينظم أتباعه فعين الكاتب وجباة المال والشواش والجنود وعين آغوات العسكر وآغوات الخيالة، كما قام بتخصيص أجور شهرية للاغوات

حددت ب10دورو شهريا لاغا العساكر و15دورو لاغا الخيالة (بوعزيز، 1999: 158)، ويذكر أحد الضباط الفرنسيين واصفا هؤلاء الرجال قائلا:" رجال خارقون للعادة في الحرب، يرون الفارس على مرأى منظارنا ويتحدثون على بعد فرسخين ويعرفون الدروب المجهولة التي تغطيها الثلوج والضباب الكثيف ويرون ويسمعون عندما لا يرى أحد ولا يسمع شيئا" (قداش، 2008: 109).

6. نهاية مقاومة بومعزة من خلال مراسلات الماريشال سانت آرنو:

استمرت مقاومة محمد بن عبد الله بعد ذلك تحت قيادة محمد بن عبد الله الملقب ببومعزة وانتشرت شرارة هذه المقاومة بحوض الشلف وجبال الظهرة وجبال الونشريس من سنة 1844م الى سنة1847م، وأهم المعارك التي شهدتها منطقة الشلف خلال هذه الفترة نذكر معركة عين مران في 14 أفريل 1845 ومعركة ثنية الحد في 18 أفريل 1845م، ومع بداية سنة 1846 ظهر بومعزة مجددا بحوض الشلف وكبد الجيش الفرنسي خسائر فادحة، غير أن رد جيش الاحتلال الفرنسي كان عنيفا اتجاه السكان حيث قتلت عددا كبيرا من الجزائريين حيث يقول سانت آرنو في رسالة له مؤرخة في 31 جانفي 1846م، أن : "...بومعزة ظهر مجددا في مقاطعته، وقام بهجومات على مركز للجيش الفرنسي بالمشايعية في 29 جانفي حيث قتل سبع رجال وأصاب 17 فردا بجروح...وفي 30 جانفي طارد الضابط كانوبير Canoubert بومعزة، وتمكن من هزمه و قتل 25 من الفرسان المهمين في قوات جيشه..." (Saint Arnaud.1855 : 75).

بناءا على ما سبق ذكره يبدو ان الضعف بدأ ينتشر في قوات محمد بو عبد الله، نظرا لانتشار القوات الفرنسية على نطاق واسع وهو ما لم يساعده على إعطاء نفس جديد للمقاومة. خاصة بعد استسلام بعض أعوانه الى الجيش الفرنسي حيث يقول سانت آرنو في هذا السياق: "...لقد استسلم أحد خلفاء بومعزة وهو بن القبلي الذي يعد أحد الرجال النافذين في اولاد عبد الله، الذين أعلنوا استسلامهم، وكذلك الامر مع قبائل مديونة الذين سئموا من الحرب. لقد نظمتهم في فرق عسكرية قادرة على الدفاع، لقد أضحت كل قبائل الضفة اليمنى لنهر الشلف خاضعة الآن..." (Saint Arnaud.1855 : 81). بالإضافة إلى ذلك أثرت حملات الإبادة المتكررة التي كان يقوم بها سانت آرنو على القواعد الخلفية للمقاومة وعن ذلك يذكر هذا الأخير انه قام في 31 مارس 1847م، بحملة ضد

أولاد يونس حيث قتل منهم ما يفوق الأربعين فردا وأحرق غلالهم، وأخذ ماشيتهم، وهو ما دفع أعيانهم الى المجيء إليه يطلبون الأمان، فاستغل الظرف وفرض عليهم غرامات باهظة "(Saint Arnaud.1855 : 140).

شهدت سنة 1847 أحداث متسارعة أثرت بشكل كبير على مقاومة بومعزة، ويشير سانت آرنو في مراسلته المؤرخة في 17 أفريل 1847م، إلى تفاصيل نهاية مقاومة الشيخ محمد بن عبد الله، حيث يبين مدى التضييق الذي أضحت تعاني منه المقاومة وحالة اليأس التي أصابت زعيمها، فأينما حل الشيخ محمد بن عبد الله كان يجد قوات عسكرية فرنسية مستعدة لمقاتلته مع المتواطئين معهم من السكان المحليين، وعليه أضحى يشعر بخيبة الأمل، واقتنع بان استمرار مقاومته أضحى مستحيلا نظرا للضعف الذي أصاب القبائل المساندة له. (Saint Arnaud.1855 : 143).وفي آخر أيام مقاومته انتقل إلى قبيلة أولاد يونس التي كان قائدها أحد المخلصين له، ولكنه وجد بها أربعة مخازنية كان قد أرسلهم سانت آرنو إلى هذه القبيلة، لقد كانت هذه المواجهة الأخيرة بالنسبة لبومعزة، حيث طلب من هؤلاء المخازنية تسليمه إلى سانت آرنو باورليون فيل، فما كان منهم إلا تلبية طلبه هذا، ويؤكد سانت آرنو في مراسلته هذه على أن هؤلاء المخازنية كانوا مرعوبين منه إلى درجة أنهم لم يتمكنوا من تجريده من أسلحته (مسدسين بها ثمانية رصاصات) بل بقي محتفظا بها إلى غاية مقابلة سانت آرنو ، الذي وصف بان نهاية مقاومة بومعزة تعد انجازا كبيرا يفتح الباب أمام استقرار السلطة الفرنسية بأمان في الجزائر(Saint Arnaud.1855 : 144). ويبين أيضا في هذه المراسلة إلى انه قد أرسله في 15 افريل حسب تعليمات الحاكم العام إلى تنس بمرافقة فرقة عسكرية على رأسها العقيد ريتشارد Ritchard، ومن تنس سيتم ترحيل بومعزة إلى مدينة الجزائر(Saint Arnaud.1855 : 143).

ومن خلال ذلك يمكن القول بأن هذه الأحداث التاريخية تعكس مدى الدور الذي لعبه سكان منطقة الظهرة والونشريس وحوض الشلف في مواجهة المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وكذا التحديات الجسيمة التي واجهت المقاومة بالمنطقة، كما ان نهاية مقاومة الشريف بومعزة كانت إيذانا ببدء سياسة فرنسية استعمارية استيطانية

ستعمق الهوة بين الساكنة المحلية والمستعمر، كما ستجعلهم متأهبين لحركات ثورية قادمة.

7. الخاتمة:

يعد مؤلف مراسلات الماريشال سانت آرنو بحق سجل لجوانب من تسلط المستعمر الفرنسي، فصاحب الكتاب كان احد صناع الحدث الإجرامي خلال هذه الفترة، ومن جانب آخر يكشف هذا المصدر عن التحديات التي واجهتها المقاومة بالظهرة والونشريس وحوض الشلف عموما، من ناحية التجنيد والتسليح، فالمستعمر الفرنسي استهدف حاضنة هذه المقاومة بوسائل الإبادة والحرق جعلته يستطيع إخضاع أغلب سكان المنطقة .

تبين مراسلات الماريشال سانت آرنو من جهة اخرى انفصام شخصية الضباط الفرنسيين في الجزائر، فبالرغم من تكوينهم العسكري العالي واطلاعهم على حقوق الإنسان بفعل الفترة التي عايشوها خلال الثورة الفرنسية إلا أنهم مارسوا الإجرام في حق الجزائريين دون أي عقدت ذنب، بل نجد سانت آرنو في هذا السياق يفتخر بالجرائم التي كان يرتكبها في الجزائر، وهذا يدل على أنه كان يعلم بان جرائمه تلك لن يتم محاسبته عليها بل على العكس من ذلك نجده يحصل على ترقيات بعدها، فجرائم الضباط عموما كانت تلقى التشجيع والموافقة من قبل قادة الجيش والسلطة الفرنسية، وهو ما يجعلنا نجزم بان إجرام الضباط الفرنسيين في الجزائر كان إجراما من قبل الدولة الفرنسية في حق الجزائريين.

تعاليق:

-التعليق 1: الماريشال بيجو Thomas- Robert Bugeaud de la Piconnerie Duc d'Isly: ولد في 15 اكتوبر 1784 بليموج، كان عضوا في البرلمان الفرنسي عن منطقة درودون من 5 جويلية الى 29 أفريل 1848م، كما عين حاكما عاما للجزائر من 29 ديسمبر 1840 الى 29 جوان 1847م، وفي 9 أفريل 1843 حصل على نيشان الصليب الاكبر لفرقة الشرف، ثم عين في رتبة ماريشال في 31 جويلية 1843م، ليصبح بعدها نائبا برلمانيا عن منطقة شارانت من 26 نوفمبر إلى 10 جوان 1849م، وهو تاريخ وفاته (Azan, 1930 : 34).

-التعليق 2: ظهر التنسيق بين الأمير عبد القادر والشريف بومعزة بشكل واضح خلال معركة تامدة التي وقعت في 23 ديسمبر 1845م، التي سيكون من نتائجها تعيين الأمير عبد القادر الشريف بومعزة خليفة له على الظهرة (الجيلالي، 2021: 137).

التعليق3: تعد مجزرة غار الفراشيش بالظهرة رد فعل إجرامي من قبل السلطات الفرنسية على انتفاضة الظهرة التي استمرت من جانفي 1845 إلى غاية أفريل 1847، التي تزعمها "محمد بن عبد الله" المدعو بومعزة (سعد الله، 1992: 269). و نظرا لدور قبيلة أولاد رياح في هذه الثورة شن الجنرال بيليسي Pellissier وسانت آرنو Saint Arnaud ولادميرو Ladmiero بتوجيه من الجنرال بيجو حملة ضدها في جوان 1845. (Demantrand, 1847 : 349). وكانت مضارب هذه القبيلة في جبال الظهرة المنيعة التي تحتوي العديد من الكهوف، أحدها يسمى القنطرة يقع على مرتفع يجمع بين تلين يقعان على ضفاف وادي الفراشيش، ولهذا الكهف مدخلين أحدهما في الجنوب الغربي و الثاني من جهة الجنوب الشرقي، و كان يقرب هذين المدخلين صخور كبيرة (Bousquet, 1907 : 120)، إلى هذا الكهف قام أفراد قبيلة أولاد رياح بنقل الأطفال والعجزة و المواشي لحمايتهم من حملات القوات الفرنسية، بينما توجه القادرين منهم على حمل السلاح لمواجهة الفرنسيين، إلا أن القوات الفرنسية التي كانت تحت إمرة سانت أرنو و بيلسي تمكنت من تشتيت قوات القبائل التي واجهتها، فاضطر مقاتلي أولاد رياح إلى الالتحاق بعائلاتهم بغار القنطرة (اسماعيل. 1982: 286)، الذي قامت قوات الجنرال بيلسي بمحاصرته من جميع الجوانب، و طلب بيلسي من أولاد رياح الاستسلام إلا أنهم رفضوا، فقام باستخدام إحدى الطرق الفظيعة لإخضاعهم، و هي طريقة قد وافقت عليها قيادة القوات الفرنسية سابقا، و تتمثل هذه العملية بجمع الجنود الفرنسيين لأكوام من الحطب و وضعها في مدخل الكهف و إشعال النار فيها، وبقيت هذه النار مشتعلة طوال يومين أي 19 و 20 جوان(Bousquet, 1907 : 125)، ولما انطفأت النيران ودخل الجنود الفرنسيين وجدوا الجثث مكدسة بعضها فوق البعض، والدماء خارجة من أنوف و أفواه أصحابها جراء اختناقهم بالدخان، كما وجدت العديد من جثث النساء و قد التصقت بجثث أطفالهن في منظر رهيب(Demantrand, 1847 : 349).

لقد اختلف في تقدير ضحايا هذه المحرقة، فهناك من الكتاب من يشير إلى أن عدد القتلى حوالي الألف، بينما بعضهم يجعل الرقم 750، و بعضهم 800 قتيل، وهناك من يحدد قتلى هذه المحرقة ب 600 قتيل.

التعليق 4: أمابل بيليسي Aimable Pélissier 1794-1864: يعد أحد أشهر الضباط الفرنسيين الذين عملوا في الجزائر، ولد في 6 نوفمبر 1794 في ماروم Maromme، دخل مدرسة قيادة الأركان 1819 شارك، وكان من الضباط المشاركين في حروب فرنسا بإسبانيا سنة 1823م، ثم انضم الى الحملة الفرنسية على الجزائر في 1830م، ليعود مرة أخرى إلى الجزائر في 1841 برتبة مقدم، تقلد في 1843 مهام نائب قائد أركان الجيش ثم قائدا لأركان الجيش، تولى بعد ذلك العديد من المناصب خلال عهد الامبراطورية الثانية إلى أن تم تعيينه حاكما عاما على الجزائر في 1860م، وهو المنصب الذي بقي به إلى غاية وفاته بالجزائر في **22** ماي 1864م (Louis,) 1896 : 86-88.

المصادر والمراجع:

- أبو القاسم سعد الله. (1992). الحركة الوطنية الجزائرية. الجزء الأول. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- أبو القاسم سعد الله. (2007). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. الجزء الأول. الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.
- الجيلالي طاهري، عيسى زريكي. (2022). معركة تامدة (23 ديسمبر 1845): مواجهة تاريخية بين الأمير عبد القادر والفرنسيين. مجلة التاريخ المتوسطي. المجلد 3. العدد 2. ص.ص.127-143.
- العربي إسماعيل.(1982). المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر. الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- فرانسوا ماسبيرو. (2006). سانت أرنو أو الشرف الضائع. ترجمة أحمد بكلي. مراجعة مسعود حاج مسعود. الجزائر: دار القصبة للنشر.
- محفوظ قداش. (2008). جزائر الجزائريين –تاريخ الجزائر -1830-1954. الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار.

- محمد الحاج صادق. (1964). مليانة ووليها سيدي احمد بن يوسف. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- ناصر الدين سعيدوني. (2009). ورقات جزائرية – دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني. طبعة ثانية. الجزائر: دار البصائر.
- يحي بوعزيز (1999). مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

-Bousquet.R. (1907). L'affaire des Grottes du Dahra (19-20 Juin 1845), revue Africaine, O.P.U, n° 51.

-Changarnier T. (1930). Mémoire du général Changarnier. Introduction H Destrer. Paris : Édition. Berger.

-Daumas. (1921). Correspondances du capitaine Daumas consul à Mascara1837-1839. Paris : éd. Jourdan.

-Demontrand. (1847). Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830 à 1847. Tome II. Paris : E. Marc- Audel.

-M.Louis de la roque, (1896), Catalogue Historique des Généraux Français, Paris, éditeur de Médailles.

-Narcisse Faucon. (1889). Livre D'or de L'Algérie. Paris : challamel.

-Paul Azan. (1930). les grands soldats de l'Algérie. Algérie. Publication du comité national Métropolitain du centenaire de l'Algérie.

-Saint Arnaud. (1858) Lettres du Maréchal de Saint Arnaud 1832- 1854 T01-T02. Paris: Ed, lerey.